مع

سورة الغاشية

تأليف

د. خالد النجار

مع

سورة الغاشية

د. خالد النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مع سورة الغاشية

سُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَالتَّفَاسِيرِ «سُورَةُ الْغَاشِيَةِ». وَكَذَلِكَ عَنْوَنَهَا التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ «جَامِعِهِ» لِوُقُوعِ لَفْظِ «الْغَاشِيَةِ» فِي أَولهَا. وَثبتت فِي السُّنَّةِ تَسْمِيَتُهَا «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ».

وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ «سُورَةُ هَلْ أَتَاكَ» بِدُونِ كَلِمَةِ "حَدِيثُ الْغاشِيَةِ"، وَبِذَلِكَ عَنْوَنَهَا ابْنُ عَطِيَّةَ فِي «تَفْسِيرِهِ» وَهُوَ اخْتِصَارٌ.

وهي إحدى السورتين اللتين كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقرأ بهما في المجامع الكبيرة، فقد كان يقرأ في صلاتي العيدين ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وكذلك في صلاة الجمعة، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقْرَأُ، فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ، بِ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ». [مسلم]

وفي الموطأ عن الضَّحَّاك بْنَ قَيْسٍ، سَأَلَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ مَاذَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَوْمَ الْجُمُعَةِ، عَلَى إِثْرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ بِ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾» [صحيح]

ويقرأ أحياناً في العيدين: ﴿ق. والقرآن المجيد﴾ و﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، وفي الجمعة: سورة الجمعة والمنافقين، ينوع مرة هذا، ومرة هذا.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ الاستفهام للتشويق إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الْخَبَرِ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْعِظَةِ.

فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:10]

** ويجوز أن يكون للتعظيم ولَفْتِ النَّظَرِ، وَشِدَّةِ التَّعَجُّبِ، وَالتَّنْوِيهِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–: "لَمْ يَكُنْ أَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ بِهِ".

** وقد تكون للتقرير، أي بمعنى: «قد». لأن الِاسْتِفْهَامِ بِـ ﴿هَلْ﴾ يفيد مَعْنَى (قَدْ).

** وإِطْلَاقُ فِعْلِ «الْإِتْيَانِ» يدل عَلَى فُشُوِّ الْحَدِيثِ

﴿حَدِيثُ﴾ خَبَرُهَا ونبأها الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية العظيمة التي تغشى الناس بشدائدها، وهي عَلَمٌ بِالْغَلَبَةِ على يوم القيامة التي تحدث الله عنها في القرآن كثيراً، ووصفها بأوصاف عظيمة.

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِهَذَا الِاسْمِ ; لِأَنَّ مَا أَحَاطَ بِالشَّيْءِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ فَهُوَ غَاشٌّ لَهُ، وَالْقِيَامَةُ كَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا تَرِدُ عَلَى الْخَلْقِ بَغْتَةً، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107]

وَالثَّانِي: أَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ بِالْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قُدِّمَ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ لِلِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْيَوْمِ.

﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذَلِيلَةٌ.. يُطْلَقُ الْخُشُوعُ عَلَى الْمَذَلَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى:45] وَقَالَ: ﴿خَاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج:44].

وهي وجوه أهل الكفر بالحق والجحود له. والمراد بالوجوه الذوات، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ [الرَّحْمَن:27].

وَأُوثِرَتِ الْوُجُوهُ بِالْكِنَايَةِ عَنْ أَصْحَابِهَا هُنَا وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ لِأَنَّ حَالَةَ الْوُجُوه تنبئ عَنْ حَالَةِ أَصْحَابِهَا إِذِ الْوَجْهُ عُنْوَانٌ عَمَّا يَجِدُهُ صَاحِبُهُ مِنْ نَعِيمٍ أَوْ شَقْوَةٍ.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ الْعَامِلَةُ: الْمُكَلَّفَةُ الْعَمَلَ مِنَ الْمَشَاقِّ يَوْمَئِذٍ. وناصِبَةٌ: مِنَ النَّصَبِ وَهُوَ التَّعَبُ.

وَأُوثِرَ وَصْفُ خاشِعَةٌ وعامِلَةٌ وناصِبَةٌ تَعْرِيضًا بِأَهْلِ الشَّقَاءِ بِتَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْخُشُوعَ لِلَّهِ وَالْعَمَلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَالنَّصَبَ فِي الْقيام بِطَاعَتِهِ، فجزاؤهم خُشُوعٌ مذلّة، وَعَمَلُ مَشَقَّةٍ، وَنَصَبُ إِرْهَاقٍ.

** قال القاشاني: "أي تعمل دائبا أعمالا صعبة تتعب فيها، كالهوي في دركات النار، والارتقاء في عقباتها، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة من آثار أعمالها. أو عاملة من استعمال الزبانية إياها في أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التي ضربت بها في الدنيا، وأتعابها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعذاب".

قال العلماء: وذلك أنهم يكلفون يوم القيامة بجر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم، كما يخوض الرجل في الوحل، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:17]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:17] فهي عاملة تعبة من العمل الذي تكلف به يوم القيامة؛ لأنه عمل عذاب وعقاب.

** وجوز أن يكون ﴿عامِلَةٌ ناصِبَةٌ﴾ إشارة إلى عملهم في الدنيا. أي عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة.. عَمَلٌ وَنَصَبٌ فِي الْعِبَادَاتِ الْفَاسِدَةِ: كَعَمَلِ الرُّهْبَانِ وَالْقِسِّيسِينَ وَالْمُبْتَدَعَةِ الضَّالِّينَ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيكون بمنزلة حابطة أعمالها.

وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ النصارى. [أخرجه البخاري معلقًا، ولعله يريد اليهود والنصارى الذين أشركوا بالله تعالى]

وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، وناصبة في النار بالعذاب والإهلاك.

أو جعلت أعمالها هباء منثورا كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية، لقوله في أهل الجنة ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ وذلك السعي هو الذي كان في الدنيا. والله أعلم

ومنهم من رد هذا القول الأخير وذلك لأن الله قيد هذا بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يومئذ تأتي الغاشية، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة. وهو ترجيح ابن تيمية وابن عثيمين.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ تدخل نارا متناهية في الحرارة، فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا.

وذَكَرَ: ﴿نَارًا﴾ بَعْدَ ﴿تَصْلى﴾ لِزِيَادَةِ التَّهْوِيلِ وَالْإِرْهَابِ وَلِيُجْرَى عَلَى نَارًا وَصْفُ ﴿حامِيَةً﴾.

وَوَصَفَ النَّارَ بِـ ﴿حامِيَةً﴾ لِإِفَادَةِ تَجَاوُزِ حَرِّهَا الْمِقْدَارَ الْمَعْرُوفَ لِأَنَّ الْحُمِّيَ مِنْ لَوَازِمِ مَاهِيَّةِ النَّارِ فَلَمَّا وُصِفَتْ بِـ ﴿حامِيَةً﴾ كَانَ دَالًّا عَلَى شِدَّةِ الْحُمَّى قَالَ تَعَالَى: ﴿نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الْهمزة:6].

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ بلغت غايتها في شدة الحر، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:44]

ومع هذا لا يأتي هذا الشراب بكل سهولة، أو كلما عطشوا سقوا، وإنما يأتي كلما اشتد عطشهم واستغاثوا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف:29]

وهذا الماء إذا قرب من وجوههم شواها وتساقط لحمها، وإذا دخل في أجوافهم قطّعها، يقول عز وجل: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:15] فلا يستفيدون منه لا ظاهراً ولا باطناً، لا ظاهراً بالبرودة ببرد الوجوه، ولا باطناً بالرِي.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وهو من جنس الشوك، ترعاه الإبل ما دام أخضر رطبا. فإذا يبس تحامته، لأنه سم قاتل.. أَيْ يَطْعَمُونَ طَعَامَ إِيلَامٍ وَتَعْذِيبٍ لَا نَفْعَ فِيهِ لَهُمْ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ أَلَمًا.

قال ابن جرير: الضريع عند العرب نبت يقال له «الشِّبْرِق»، وتسميه أهل الحجاز الضريع، إذا يبس.

قال قتادة: قريش تسميه في الربيع الشِّبْرِق، وفي الصيف الضريع.

ولكن الضريع الذي في نار جهنم لا كالضريع الذي في الدنيا فهو يختلف عنه اختلافاً عظيماً.

ولا منافاة بين هذه الآية وآية: ﴿وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:36] لأن العذاب ألوان، والمعذبون طبقات. فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع.

﴿لَا يُسْمِنُ﴾ البدن ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ لا يسكن داعية النفس ولا نهمها من أجله.

وَوَصْفُ ضَرِيعٍ بِأَنَّهُ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ لِتَشْوِيهِهِ وَأَنَّهُ تَمَحُّضٌ لِلضُّرِّ فَلَا يَعُودُ عَلَى آكِلِيهِ بِسِمَنٍ يُصْلِحُ بَعْضَ مَا الْتَفَحَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَفْعَ أَلَمِ الْجُوعِ، وَلَعَلَّ الْجُوعَ مِنْ ضُرُوبِ تَعْذِيبِهِمْ فَيَسْأَلُونَ الطَّعَامَ فَيُطْعَمُونَ الضَّرِيعَ فَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ أَلَمَ الْجُوعِ.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ هُوَ يَوْمُ الْغَاشِيَةِ الْمُتَقَدِّمُ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْغَاشِيَةَ عَامَّةٌ فِي الْفَرِيقَيْنِ. وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُهَا مَعَ مُخْتَلَفِ النَّاسِ، وَعَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ تَغْشَاهُ بِهَوْلِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْشَاهُ بِنَعِيمِهَا. وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مُتَنَاهِيَةٌ فِيمَا تَغْشَاهُمْ بِهِ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْغَاشِيَةَ تُطْلَقُ عَلَى الْخَيْرِ كَمَا تُطْلَقُ عَلَى الشَّرِّ، بِمَعْنَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ التَّامَّةِ. وَمِنْ إِطْلَاقِهَا عَلَى الْخَيْرِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) [مسلم]

﴿نَاعِمَةٌ﴾ ذات حسن، على أنه من «النُعومة» وَهِيَ: اللِّينُ وَبَهْجَةُ الْمَرْأَى وَحُسْنُ الْمَنْظَرِ، كناية عن حسن المنظر.

أو ناعمة بمعنى متنعمة، على أنه من «النعيم»، إِذَا كَانَ ذَا نِعْمَةٍ، أَيْ حَسَنُ الْعَيْشِ وَالتَّرَفِ.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ لعملها الذي عملته في الدنيا، وجدّها في طريق البر واكتساب الفضائل، راضية شاكرة لا تندم ولا تتحسر لأنها وصلت به إلى هذا النعيم وهذا السرور وهذا الفرح، فهي راضية لسعيها بخلاف الوجوه الأولى فإنها غاضبة –والعياذ بالله– غير راضية على ما قدمت.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المحل، فهي عالية وأعلاها ووسطها الفردوس الذي فوقه عرش الرب جل وعلا.

أو عالية: رفيعة القدر، من علوّ المكانة.

وَوصف جَنَّةٍ بِـ ﴿عالِيَةٍ﴾ لِزِيَادَةِ الْحُسْنِ لِأَنَّ أَحْسَنَ الْجَنَّاتِ مَا كَانَ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [الْبَقَرَة:265] فَذَلِكَ يُزِيدُ حُسْنَ بَاطِنِهَا بِحُسْنِ مَا يُشَاهِدُهُ الْكَائِنُ فِيهَا مِنْ مَنَاظِرَ، وَهَذَا وَصْفٌ شَامِلٌ لِحُسْنِ موقع الْجَنَّة.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي لغوا، أو كلمة ذات لغو، أو نفسا تلغو.

وَاللَّغْوُ: الْكَلَامُ الَّذِي لَا فَائِدَةَ لَهُ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ دَارُ جِدٍّ وَحَقِيقَةٍ فَلَا كَلَامَ فِيهَا إِلَّا لِفَائِدَةٍ لِأَنَّ النُّفُوسَ فِيهَا تَخَلَّصَتْ مِنَ النَّقَائِصِ كُلِّهَا فَلَا يَلَذُّ لَهَا إِلَّا الْحَقَائِقُ وَالسُّمُوُّ الْعَقْلِيُّ وَالْخُلُقِيُّ، وَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا مَا يَزِيدُ النُّفُوسَ تَزْكِيَةً.

فكل ما الجنة جد، وكل ما فيها سلام، كل ما فيها تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، أي أنه لا يشق عليهم، فهم دائماً في ذكر الله عز وجل. كما قال تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم:62]

﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:23]

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة:25-26]

** وابْتُدِئَ فِي تَعْدَادِ صِفَاتِ الْجَنَّةِ بِصِفَتِهَا الذَّاتِيَّةَ وَهُوَ كَوْنُهَا عَالِيَةً، وَثُنِّيَ بِصِفَةِ تَنْزِيهِهَا عَمَّا يُعَدُّ مِنْ نَقَائِصِ مَجَامِعِ النَّاسِ وَمَسَاكِنِ الْجَمَاعَاتِ وَهُوَ الْغَوْغَاءُ وَاللَّغْوُ.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ تجري حيث أراد أهلها ولا انقطاع لها. وليس المراد بها عينًا واحدة وإنما هذا جنس يعني: فيها عيون جاريات.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ مرتفعة ليروا إذا جلسوا عليها جميع ما خولوه من النعيم والملك.. قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ إِنَاءٌ لِلْخَمْرِ لَهُ سَاقٌ وَلَا عُرْوَةَ لَهُ.

﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ أَيْ لَا تُرْفَعُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ كَمَا تُرْفَعُ آنِيَةُ الشَّرَابِ فِي الدُّنْيَا إِذَا بَلَغَ الشاربون حد الِاسْتِطَاعَة مَنْ تَنَاوَلِ الْخَمْرِ، وكني بِ ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ عَنْ عَدَمِ انْقِطَاعِ لَذَّةِ الشَّرَابِ طَعْمًا وَنَشْوَةً، أَيْ مَوْضُوعَةٌ بِمَا فِيهَا مِنْ أَشْرِبَةٍ.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد يتكئون عليها ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ جُعِلَ بَعْضُهَا قَرِيبًا مِنْ بَعْضٍ صَفًّا، أَيْ أَيْنَمَا أَرَادَ الْجَالِسُ أَنْ يَجْلِسَ وَجَدَهَا.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ جَمْعُ زَرْبِيَّةٍ، وَهِيَ الْبِسَاطُ أَوِ الطُّنْفُسَةُ الْمَنْسُوجُ مِنَ الصُّوفِ الْمُلَوَّنِ النَّاعِمِ يُفْرَشُ فِي الْأَرْضِ لِلزِّينَةِ وَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لِأَهْلِ التَّرَفِ وَالْيَسَارِ.

وَالزَّرْبِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى (أَذْرَبِيجَانَ) بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ فَارِسَ وَبُخَارَى مَشْهُورٌ بِنُعُومَةِ صُوفِ أَغْنَامِهِ. وَاشْتُهِرَ أَيْضًا بِدِقَّةِ صُنْعِ الْبُسُطِ وَالطَّنَافِسِ وَرِقَّةِ خَمْلِهَا.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ الْمُنْتَشِرَةُ عَلَى الْأَرْضِ بِكَثْرَةٍ وَذَلِكَ يُفِيدُ كِنَايَةً عَنِ الْكَثْرَةِ.

والأسماء واحدة والحقائق مختلفة، ولهذا قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: "ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط".

قال ابن عاشور: وَهَذَا وَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ النَعِيمِ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ تَرَفَ الْجَنَّةِ لَا يَبْلُغُهُ الْوَصْفُ بِالْكَلَامِ وَجُمِعَ ذَلِكَ بِوَجْهِ الْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:71]، وَلَكِنَّ الْأَرْوَاحَ تَرْتَاحُ بِمألوفاتها فتعطاها فَيكون نَعِيمَ أَرْوَاحِ النَّاسِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِنْ كُلِّ مِصْرٍ فِي الدَّرَجَةِ

الْقُصْوَى مِمَّا أَلِفُوهُ وَلَا سِيَّمَا مَا هُوَ مَأْلُوفٌ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ وَكَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُزَادُونَ مِنَ النَعِيمِ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قلب بشر».

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

﴿أَفَلَا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي إن الله يوبخ هؤلاء الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة، وعن الثواب والعقاب، أنكر عليهم إعراضهم عن النظر في آيات الله تعالى التي بين أيديهم.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ نَظَرُ الْعَيْنِ الْمُفِيدِ الِاعْتِبَارَ بِدَقَائِقِ الْمَنْظُورِ.

﴿إِلَى﴾ تفيد التَنْبِيهُ عَلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ لِيَشْعُرَ النَّاظِرُ مِمَّا فِي الْمَنْظُورِ مِنَ الدَّقَائِقِ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ نَظَرَ إِلَى كَذَا أَشَدُّ فِي تَوْجِيهِ النَّظَرِ مِنْ نَظَرَ كَذَا، لِمَا فِي (إِلَى) مِنْ مَعْنَى الِانْتِهَاءِ حَتَّى كَأَنَّ النَّظَرَ انْتَهَى عِنْدَ الْمَجْرُورِ بِ (إِلَى) انْتِهَاءَ تَمَكُّنٍ وَاسْتِقْرَارٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الْأَحْزَاب:19] وَقَوْلُهُ: ﴿إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ [الْقِيَامَة:23]

** وَلِزِيَادَةِ التَّنْبِيهِ عَلَى إِنْكَارِ هَذَا الْإِهْمَالِ قُيِّدَ فِعْلُ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ بِالْكَيْفِيَّاتِ الْمَعْدُودَةِ فِي قَوْلِهِ: كَيْفَ خُلِقَتْ، كَيْفَ رُفِعَتْ، كَيْفَ نُصِبَتْ، كَيْفَ سُطِحَتْ أَيْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى دَقَائِقِ هَيْئَاتِ خَلْقِهَا.

﴿الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين، إلى أنها كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات، في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة به تأتي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة.

فتجد البعير أيضاً يحمل الأثقال وهو بارك ثم يقوم في حمله لا يحتاج إلى مساعدة، والعادة أن الحيوان لا يكاد يقوم إذا حُمل وهو بارك لكن هذه الإبل أعطاها الله عز وجل قوة وقدرة من أجل مصلحة الإنسان، لأن الإنسان لا يمكن أن يحمل عليها وهي قائمة لعلوها، ولكن الله تعالى يسر لهم الحمل عليها وهي باركة ثم تقوم بحملها.

وفي صبرها على الجوع والعطش، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعدا. واكتفائها باليسير، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم.

وفي انقيادها مع ذلك الإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير.

ومنذ القدم، وحتى اليوم، مازال ينظر للإبل باعتبارها حيوانات صحاري، تعتمد في غذائها على ما تلتقطه من المراعي الطبيعية، والتي يتوقف وجودها وجودتها على وفرة المطر من عدمه. ورغم كل ذلك، تعايشت وتأقلمت الإبل على هذه الحياة الصعبة، والتي تعتبر ظروفا مهلكة لأي حيوان زراعي آخر، بالإضافة إلى ذلك، أنها تفوقت على بعض الأنواع من الماشية في إنتاجها السنوي من الألبان، وبعض المنتجات الحيوانية الأخرى.

وبالرغم من أن نحو 62% من إجمالي الإبل في العالم يقع في أقطارنا العربية، إلا أنه وللأسف الشديد، أغلب الدراسات والأبحاث والمصادر العلمية المتعلقة بهذه الحيوانات، مصدرها أجنبي!!

وفي السنوات الأخيرة، بدأت صحوة علمية من قبل الباحثين العرب للاهتمام بهذا الحيوان، وعلى الرغم من أنها تأخرت كثيراً، لكن كان لابد منها، للحفاظ على هذا النوع من الانقراض، باعتباره مصدراً مهماً للحوم والألبان في أقطار كثيرة، ومازالت تستخدم حتى الآن في العمل الزراعي والنقل والترحال والأغراض العسكرية وحراسة الحدود بين الدول.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17] وتأمل في بديع خلق الإبل وكيف سواها الله عز وجل وهيأها لأداء الوظيفة التي خلقها لها، لقد أعطى الله الإبل الصورة الخلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق الجمل برقبة طويلة تُعلي رأسه وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأعطى سناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سموه سفينة الصحراء.

ولم يحظ أي نوع من الأنعام بهذه الإشارة القرآنية المتدبرة التي توجه نظر الإنسان إلى خلق الإبل وتفردها بمزايا خاصة يجب أن يتفكر فيها الإنسان ويتعلم منها ويستفيد بها، فهي تؤدي دوراً اقتصادياً واجتماعياً مهماً ضمن النظم الرعوية والزراعية في المناطق الجافة وشبة الجافة في الكثير من الدول الأفريقية والآسيوية· ويعتمد عليها البدو اعتماداً يكاد يكون كلياً في معظم ضرورات حياتهم·

فهي مورد للرزق ومصدر للغذاء والكساء ووسيلة النقل والتنقل لسكان هذه المناطق· كما أنها مصدر فخر واعتزاز وتعبير عن الوضع الاجتماعي· وحديثاً دخلت الإبل ميادين رياضة السباق، واهتمت بعض الدول العربية بسباق الهجن لإبراز التراث الشعبي ومنع اندثاره، إضافة إلى إظهاره أهمية هذا الحيوان وتوجيها للاهتمام به.

ما لا نعرفه عن الإبل

الجمل حيوان وديع سهل الانقياد، صبور عند المرض، يستحسن المعاملة الطيبة ويستجيب للمداعبة، لكنه يستوحش إذا أهمل وفي هذه الحال يجب الحذر منه· والإبل سريعة الغضب متقلبة المزاج وعند استثارتها تخرج أصواتاً تشبه الزمجرة وقد تعض أحياناً·

ومن السلوكيات التي تتمتع بها الإبل أنها نادراً ما تلجأ لعملية الانتقام في حالة سوء معاملتها أو ظلمها، وإذا ما نوى الجمل على الانتقام فإنه يخطط ويرتب لذلك جيداً.

فهو يهاجم الشخص إذا كان غافلاً وأعزلاً من السلاح، ويتخذ الجمل كل أسلحته من عض وضرب الأرجل وقد يقذف بالشخص إذا كان راكباً على ظهره ويرميه على الأرض ويبرك عليه ولذلك قيل: «أحقد من جمل».

ومن عجائب هذا الحيوان أنه ذكي فهو يستطيع أن يعرف الأماكن التي شرب منها ولو مرة واحدة، وكذلك يعرف الطرق التي يسلكها ولو للمرة الأولى حتى إن الرعاة إذا لم يعرفوا الطريق وضلوا في الصحاري المهلكة، فإنهم يتركون إبلهم تسير لوحدها دون أن يرغموها على الذهاب إلى جهة معينة فتدلهم إلى مضاربهم.

كما أن الإبل تستطيع معرفة الأماكن التي ستهطل الأمطار عليها من رائحة الرطوبة فتتجه إليها. ومن ذكاء الجمل أنه يعرف مكان ولادته بكل دقة حتى لو مرت سنين طويلة وهو يحب موطن ولادته ويحن إليه دائماً. فسبحان من ألهمه ذلك. وسبحان من قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

العلاج بألبان وأبوال الإبل

عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ نَاسًا اجْتَوَوْا فِي الْمَدِينَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ يَعْنِي الإبل فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَسَاقُوا الإبلَ فَبَلَغَ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِمْ فَجِيءَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُم. رواه البخاري

قال القزاز: اجتووا أي لم يوافقهم طعامها. وقال ابن العربي: داء يأخذ من الوباء، وفي رواية أخرى «استوخموا» قال: وهو بمعناه. وقال غيره: داء يصيب الجوف. وفي رواية أبي عوانة عن أنس في هذه القصة «فعظمت بطونهم».

وفي الأثر عن الشافعي رضي الله عنه أورده السيوطي في المنهج السوي والمنهل الروي يقول: ثلاثة أشياء دواء للداء الذي لا دواء له، والذي أعيا الأطباء أن يداووه: العنب، ولبن اللقاح، وقصب السكر، ولولا قصب السكر ما أقمتُ بمصر.

يذكر صاحب كتاب طريق الهداية في درء مخاطر الجن والشياطين أنه أخبر عن نفر من البادية عالجوا أربعة أشخاص مصابين بسرطان الدم وقد أتوا ببعضهم بعضاً من لندن

مباشرة بعد ما يأسوا من علاجهم وفقدوا الأمل بالشفاء وحكم على بعضهم بنهاية الموت لأنه سرطان الدم، ولكن عناية الله وقدرته فوق تصور البشر وفوق كل شيء، فجاءوا بهؤلاء النفر إلى بعض رعاة الإبل وخصصوا لهم مكاناً في خيام وأحموهم من الطعام مدة أربعين يوما ثُم كان طعامهم وعلاجهم حليب الإبل مع شيء من بولها وبخاصة الناقة البكر لأنها أنفع وأسرع للعلاج وحليبها أقوى وخصوصاً من رعت من الحمض وغيره من النباتات البرية وقد شفوا تماما وأصبح أحدهم كأنه في قمة الشباب وذلك فضل الله. أهـ

قلت وقد ذكر لي الكثير عن قصص مشابهة لمرضى عجز الطب عن علاجهم من السرطان وبتوفيق من الله تعالى تم شفاؤهم بهذا العلاج عند أهل البادية.

وتوجد ظاهرة مدهشة في حليب النوق، حيث لوحظ أن نسبة الماء في تركيب حليبها في حال توافر ماء الشرب هي 86%، وفي حال ندرة الماء تصبح 91%، أي أن النوق تفرز ماءً أكثر لوليدها في أثناء شح المياه وبالتالي توفر له السوائل اللازمة تحت ظروف الجفاف.

وبول الإبل يسميه أهل البادية «الوَزَر»، وطريقة استخدامه بأن يؤخذ مقدار فنجان قهوة أي ما يعادل نحو ثلاثة ملاعق طعام من بول الناقة ويفضل أن تكون بكراً وترعى في البر ثم يخلط مع كأس من حليب الناقة ويشرب على الريق.

وفي مقالة في جريدة الاتحاد العدد 9515 بتاريخ 2001/24/7 تتناول دراسة الدكتور (محمد مراد) الإبل في مجال الطب والصحة حيث يشير إلى أنه في الماضي البعيد استخدم العرب حليب الإبل في معالجة الكثير من الأمراض ومنها أوجاع البطن وبخاصة المعدة والأمعاء ومرض الاستسقاء وأمراض الكبد وبخاصة اليرقان وتليف الكبد وأمراض الربو وضيق التنفس ومرض السكري، واستخدمته بعض القبائل لمعالجة الضعف الجنسي حيث كان يتناوله الشخص عدة مرات قبل الزواج إضافة إلى أن حليب الإبل يساعد على تنمية العظام عند الأطفال ويقوي عضلة القلب بالذات، ولذلك تصبح قامة الرجل طويلة ومنكبه عريض وجسمه قوي إذا شرب كميات كبيرة من حليب النوق في صغره.

واستخدمت أبوال الإبل وبخاصة بول الناقة البكر كمادة مطهرة لغسل الجروح والقروح ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، وكذلك لمعالجة مرض القرع والقشرة، ويقال: إن في دماء الإبل القدرة على شفاء الإنسان من بعض الأمراض الخبيثة وقيل إن حليب الإبل يحمي اللثة ويقوي الأسنان نظرا لاحتوائه على كمية كبيرة من فيتامين «ج» ويساعد على ترميم خلايا الجسم لأن نوعية البروتين فيه تساعد على تنشيط خلايا الجسم المختلفة، وبصورة عامة يحافظ حليب الإبل على الصحة العامة للإنسان.

وتشير النتائج الأولية للبحوث التي أجراها بعض الخبراء والعلماء أن تركيب الأحماض الأمينية في حليب الإبل تشبه في تركيبها هرمون الأنسولين، وأن نسبة الدهن في لحوم الإبل قليلة وتتراوح بين 1.2% – 2.8%، وتتميز دهون لحم الإبل بأنها فقيرة بالأحماض الأمينية المشبعة، ولهذا فإن من مزايا لحوم الإبل أنها تقلل من الإصابة بأمراض القلب عند الإنسان.

وفي مقالة أخرى أظنها من صحيفة الزمان أن باحثا علميا توصل إلى أن بول الإبل يشفي من طائفة من أمراض الجهاز الهضمي وعلى رأسها التهاب الكبد، والباحث اسمه (محمد أوهاج).

يقول (أوهاج) في البحث: «إن التحاليل المختبرية تدل على أن بول الجمل يحتوي على تركيز عالٍ من البوتاسيوم والبولينا والبروتينات الزلالية والأزمولارتي وكميات قليلة من حامض اليوريك والصوديوم والكرياتين، وأوضح أن ما دعاه تقصي خصائص البول البعيري العلاجية هو أنه رأى أفراد قبيلة يشربون ذلك البول حينما يصابون باضطرابات هضمية واستعان ببعض الأطباء لدراسة البول الإبلي فأتوا بمجموعة من المرضى وسقوهم ذلك البول مدة شهرين وكانت النتيجة أن معظمهم تخلصوا من الأمراض التي كانوا يعانون منها يعني ثبت علميا أن بول الجمال مفيد إذا شربته على الريق.

كما توصل «أوهاج» إلى أن بول الجمال يمنع تساقط الشعر. لا أعلم من أين حصل عليها، ألا أن مقطعها الثاني من موقع لقط المرجان.

في دراسة علمية نشرت في القاهرة، أكدت مجموعة من العلماء في قسم علوم الأغذية بكلية الزراعة «جامعة الفاتح ليبيا»، أن ألبان الإبل هي الأفضل من حيث ثرائها بمكونات الغذاء، ومن حيث سلامتها تماماً.

ركز العلماء في البداية في أبحاثهم على لبن الناقة، والمقارنة بين خواصه الحيوية وألبان الأبقار، بعد كارثة أمراض جنون البقر التي تتجدد بين فترة وأخرى، وفي أكثر من بلد أوروبي وغيرها من الأمراض التي يمكن أن تصيب الأغنام كذلك. بينما لم يسمع أحد إصابة إنسان بأي أمراض جراء تناوله ألبان النوق.

وفي هذه الدراسة العلمية والمعملية التي شارك فيها مجموعة من أساتذة كلية زراعة «جامعة الفاتح»، أثبت العلماء أن حليب الإبل يحتوي على كمية فائقة من فيتامين «ج» بما يعادل ثلاثة أمثال مثيله من ألبان الأبقار، في حين تصل نسبة «الكازين» إلى 70% من البروتين في ألبان الإبل، الأمر الذي يجعله سهل الهضم والامتصاص مقارنة بحليب الأبقار الذي تصل النسبة فيه إلى 80%، وكشفت الدراسة أن نسبة الدهون في حليب النوق هي أقل منها في حليب الأبقار, كما أنها حبيبات أقل حجماً يسهل امتصاصها وهضمها• فضلاً عن ذلك فإن ألبان النوق تحتوي على مواد تقاوم السموم والبكتريا، ونسبة كبيرة من الأجسام المناعية المقاومة للأمراض، وبخاصة للمولودين حديثاً• ويمكن وصف حليب الإبل لمرضى الربو، والسكري، والدرن، والتهاب الكبد الوبائي، وقرح الجهاز الهضمي، السرطان•

لكن الدراسة العلمية كشفت عن مفاجأة أكبر، وهي احتواء ألبان الإبل على نسبة عالية من المياه تتراوح بين 84% و91% وهي نسبة غير موجودة في أي نوع من الألبان الأخرى، وقد تجلت قدرة الله تعالى في دور هرمون (البرولاكتين) في عملية دفع المياه في ضرع الناقة لتزيد كمية المياه في اللبن، ولوحظ أن هذه العملية تتم عند الإبل وقت اشتداد الحر التي يحتاج فيها مولودها الرضيع لهذه الكمية من الماء، وكذلك الإنسان العابر معها الصحراء إلى كميات متزايدة من المياه ليطفئ ظمأه.

التجارب العلمية الليبية أثبتت أيضاً أن حليب النوق يحتفظ بجودته وقوامه مدة 12 يوماً في درجة حرارة (10) مئوية في حين أن حليب الأبقار يحتفظ بخواصه مدة لا

تزيد على يومين في درجة الحرارة عينها، وينصح أصحاب الدراسة بتناول كوب من لبن الإبل قبل النوم مع ملعقة من عسل النحل للتمتع بنوم هادئ وصحة جيدة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وفي حياة الحيوان الكبرى يقول المؤلف: وبول الإبل ينفع من ورم الكبد.

هل لك بجرعة من لبن الإبل؟

استُخدمت الإبل على مدى آلاف السنين كوسيلة لتنقل الإنسان ونقل بضائعه. غير أن النظر إليها على أنها مجرد «سفن الصحراء» هو انتقاص من قدرها الحقيقي. فالإبل عنصر لا غنى عنه في حياة سكان المناطق القاحلة لأسباب كثيرة تتخطى ذلك. فمن وبرها تُنسج البُسط، والخيام، والملابس؛ ومن جلودها تُصنع القِرَب؛ ويُحرق بعرها كوقود؛ إلى جانب أنها مصدر ممتاز للحوم والألبان في بقاع يصعب فيها إنتاج الغذاء. وفي حين أن لبن الإبل يستخدم بالفعل للاستهلاك البشري، إلا أنه قلّما يُستعمل في صنع الأجبان. ومن بين أسباب ذلك صعوبة تخثر هذا النوع من اللبن مقارنة بألبان المواشي الأخرى. وقد أصدرت المنظمة الآن مطبوعاً لمساعدة الناس على التغلّب على مشكلة التخثر هذه. والمبدأ الأساسي في صناعة الجبن هو ترويب اللبن ليشكل الخثارة والمصل. وتساعد الطرق الحديثة لصنع الأجبان عملية التخثر بإضافة الخُمْرة، وهي زريعة بكتيرية تنتج حامض اللاكتيك، والمِنفحة، وهي مادة مستخلصة من العجول وتحتوي على أنزيمات الترويب. وتكفل هذه الأنزيمات التعجيل بوتيرة فصل السوائل عن الجوامد.

ويقول (جان كلود لامبرت)، خبير الألبان: «إن صناعة الجبن من لبن الأبقار أو الماعز عملية سهلة. فكل جوانب هذه العملية معروف من الناحية التكنولوجية. غير أن لبن الإبل مسألة مغايرة لأن المنفحة التقليدية تعجز عن ترويبه»

ويضيف (لامبرت) قوله: «قبل ست سنوات لم يكن هناك من يعتقد بأنه باستطاعتنا تحويل لبن الإبل إلى جبن».

وسعياً وراء حل مشكلات التخثر المتعلقة بلبن الإبل فقد كلَّفت المنظمة البروفسور (ج.ب. راميه)، في المعهد العالي الوطني الفرنسي للزراعة والصناعات الغذائية، بدراسة

الأمر. وبعد بحوث واختبارات في كل من المملكة العربية السعودية وتونس تمكّن البرفسور (راميه) من اكتشاف طريقة لترويب اللبن بإضافة الكالسيوم، والفوسفات، ومنفحة نباتية.

ونشرت نتائج هذه البحوث في كتيب يحمل عنوان «تكنولوجيا صناعة الجبن من لبن الإبل»، ظهر أخيراً باللغة الإنكليزية. ويصف الكتيب تركيب لبن الإبل، ويقارنه بالألبان الأخرى، ويشرح طريقة ترويبه لصناعة الجبن. كما أن هذا الكتيب، صادر ضمن سلسلة الوثائق التقنية لقسم الإنتاج الحيواني وصحة الحيوان في المنظمة، ومتوافر بالفرنسية أيضا.

ويقول (لامبرت): «إن هذه هي ثورة عظيمة. فنصف كميات لبن الإبل التي ينتجها البدو الرحّل تضيع هباء لأن الكثير من المجتمعات تكتفي باستهلاك اللبن الطازج فقط. وصناعة الجبن هي طريقة من طرق حفظ اللبن، مما يوفر فرصة للاتجار به عبر التغلّب على العقبات العملية وبعد حل الكثير من مصاعب التجهيز، كانت الخطوة التالية هي التعرّف على مدى نجاح إنتاج أجبان الإبل على الصعيد العملي. وفي العام 1994م بدأت المنظمة بمساعدة شركة ألبان موريتانية على إنتاج جبن الإبل. ووفر البرنامج، المستند إلى خبرات البروفسور (راميه)، المساعدة التقنية وقدم إعانات لشراء الآلات اللازمة. وأنتجت الشركة المذكورة نوعين من أجبان الإبل إضافة إلى منتجاتها المعتادة من ألبان الأبقار، والماعز، والإبل.

ورغم أن الكثير من المشكلات التقنية سوِّيت على ما يبدو فقد برزت عقبات كثيرة. وتقول (نانسي عبد الرحمن)، صاحبة الشركة: «إن الموريتانيين لم يكونوا معتادين على تناول الجبن إضافة إلى أن أسعاره كانت مرتفعة. وبما أن الغاية من صناعة الجبن هي امتصاص فائض اللبن الموسمي غير المستهلك على أي حال، فقد سعينا إلى تصدير ما ننتجه من أجبان».

وكانت المشكلة هي أن الاختبارات المعتادة لمدى بسترة اللبن المطبقة على ألبان الأنواع الأخرى من الماشية عجزت عن أن تقيس بدقة مستويات بسترة لبن الإبل.

ومن ثم فإن هذا اللبن لم يكن مشمولاً بمعظم لوائح الألبان القائمة، ولاسيما في البلدان التي لا تمتلك قطعاناً من الإبل. وأدى ذلك إلى الحد بشدة من الأسواق المتاحة، وتوقفت شركة الألبان الموريتانية عن إنتاج جبن الإبل العام 1995م. غير أن (نانسي عبد الرحمن) ليست من النوع الذي يقبل بالاستسلام. وهكذا فإن شركتها التي تنتج 13000 لتراً من ألبان الإبل، والأبقار، والماعز يومياً وتوفر الرزق لنحو 800 أسرة بدوية، استأنفت أخيراً إنتاج جبن الإبل. ورغم أن الأسواق ليست واسعة بعد، فإنها بدأت ببيع كميات صغيرة من جبن الإبل في العاصمة الموريتانية نواكشوط.

وتقول (نانسي عبد الرحمن): «إننا ننتج نوعاً واحداً من الجبن. إن عملية الصنع عسيرة، والغلة متدنية للغاية، وليس لدينا سوق في الواقع». وتضيف (نانسي): «إن هذا الجبن جيد حقا».

ولجبن الإبل ميزات أخرى أيضاً. إذ يتسم بوفرة الفيتامينات، وقلة الكوليسترول، وانخفاض اللاكتوز مما يجعله مناسباً لأولئك المصابين بالحساسية من منتجات الألبان الأخرى.

وثمة دلائل مشجعة أخرى. إذ تباع الآن مادة متاحة باسم «كاميفلوك»، وهي منتج يضم عوامل تخثير لبن الإبل، في مغلفات صغيرة سهلة الاستخدام في كل من مالي، الإمارات العربية المتحدة.

ويرى الخبير (لامبرت) أن هناك فرصاً عظيمة للجمع بين «الكاميفلوك» ووحدات صناعة الجبن النقالة ذات التكاليف الزهيدة التي تعمل المنظمة على ترويجها في الوقت الراهن.

ويقول (لامبرت): «لقد أدخلنا هذه الأجهزة في النيجر أخيراً لتصنيع منتجات ألبان الإبل. وهذه الأجهزة زهيدة الثمن، إذ يصل سعر كل منها إلى نحو 50 دولاراً فقط، كما كان بمقدور النساء المحليات البدء بالإنتاج بعد دورة تدريبية على صناعة الأجبان استمرت يومين فقط».

ويمكن لهذين الابتكارين، عند تضافرهما، أن يشكّلا نعمة على الجماعات البدوية في المناطق القاحلة. ويؤكد (لامبرت) أن هذه التكنولوجيا واعدة للغاية بالنسبة للكثير

من البلدان التي تضم مجموعات بدوية واسعة، فهي تمتلك قدرة هائلة على زيادة مستويات دخلها.

ويشير خبير المنظمة إلى أن المطبوع سيتاح، كما هو منتظر، باللغة العربية في أوائل العام المقبل، مما يوفر فرصة أكبر لنشر هذه المعرفة في صفوف تلك المجموعات السكانية التي يمكن أن يعود عليها بأعظم النفع. [«أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» مهندس زراعي: محمود سلامة الهايشة، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية]

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعت بكواكبها رفعا سحيق المدى، وأمسك كل منها في مداره إمساكا لا يختل سيره ولا يفسده نظامه.

** وَنُقِلَ بِهِمْ إِلَى التَّدَبُّرِ فِي عَظِيمِ خَلْقِ السَّمَاءِ إِذْ هُمْ يَنْظُرُونَهَا نَهَارَهُمْ وَلَيْلَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ وَظَعْنِهِمْ، يَرْقُبُونَ أَنْوَاءَ الْمَطَرِ وَيَشِيمُونَ لَمْعَ الْبُرُوقِ، فَقَدْ عُرِفَ الْعَرَبُ بِأَنَّهُمْ بَنُو مَاءِ السَّمَاءِ، وَفِي كَلَامِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ ذَكَرَ قِصَّةَ هَاجَرَ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فِي آخِرِهَا: «إِنَّهَا لَأُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ»

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أقيمت منتصبة لا تبرح مكانها، حفظا للأرض من الميدان.

وَكَانَتِ الْجِبَالُ مَنَازِلَ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ مِثْلَ جَبَلَيْ أَجَإٍ وَسَلْمَى لِطَيِّءٍ. وَيَنْزِلُونَ سُفُوحَهَا لِيَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَى الِاعْتِصَامِ بِهَا عِنْدَ الْخَوْفِ وَيَتَّخِذُونَ فِيهَا مَرَاقِبَ لِلْحِرَاسَةِ.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سويت وبسطت ومهدت، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق.. يُقَالُ: سَطَحَ الشَّيْءَ إِذَا سَوَّاهُ وَمِنْهُ سَطْحُ الدَّارِ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ كُلِّ قَوْمٍ لَا مَجْمُوعَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ... وهي آيَةٌ ثَابِتَةٌ ; لِأَنَّ جِرْمَهَا مَعَ إِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى تَكْوِيرِهَا، فَإِنَّهَا تُرَى مُسَطَّحَةً، أَيْ: مِنَ النُّقْطَةِ الَّتِي هِيَ فِي امْتِدَادِ الْبَصَرِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى سِعَتِهَا وَكِبَرِ حَجْمِهَا ; لِأَنَّ الْجِرْمَ الْمُتَكَوِّرَ إِذَا بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ وَالضَّخَامَةِ حَدًّا بَعِيدًا يَكَادُ سَطْحُهُ يُرَى مُسَطَّحًا مِنْ نُقْطَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ آيَاتٌ مُتَعَدِّدَاتٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَعْثِ الْخَلَائِقِ، وَعَلَى إِيقَاعِ مَا يَغْشَاهُمْ عَلَى مُخْتَلَفِ أَحْوَالِهِمْ.

قال الزمخشري: والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق. حتى لا ينكروا اقتداره على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه.

** وَبُنِيَتِ الْأَفْعَالُ الْأَرْبَعَةُ إِلَى الْمَجْهُولِ لِلْعِلْمِ بفاعل ذَلِك.

﴿فَذَكِّرْ﴾ من أرسلت إليه بآياته تعالى، التي تسوق بالفطرة إلى الإيمان بخالقها.

والْفَاءُ فَصِيحَةُ تَفْرِيعٍ عَلَى مُحَصَّلِ مَا سَبَقَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ الَّذِي هُوَ التَّذْكِيرُ بِالْغَاشِيَةِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ مِنْ ذِكْرِ إِعْرَاضِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ.

** والْأَمْرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي طَلَبِ الِاسْتِمْرَارِ وَالدَّوَامِ. أي الدَّوَامِ عَلَى تَذْكِيرِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يُؤَيِّسُهُ إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَعَدَمُ ادِّكَارِهِمْ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَتَثْبِيتُهُ بِأَنَّهُ لَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ إِصْغَائِهِمْ إِذْ لَمْ يُبْعَثْ مُلْجِئًا لَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

﴿إِنَّمَا﴾ تفيد القصر ﴿أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالدَّوَامِ عَلَى التَّذْكِيرِ مَعَ عَدَمِ إِصْغَائِهِمْ، أي فلا تهلك نفسك إذا لم يؤمنوا، فإيمانهم لهم وكفرهم ليس عليك.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ ليس لك سيطرة ولا سلطة عليهم، ولست بمتسلط تقهرهم على الإيمان، فالسلطة لله رب العالمين.. أنت عليك البلاغ، والسلطان والسيطرة لله عز وجل.

قال ابن عاشور: وَمِنَ الْجَهَلَةِ مَنْ يَضَعُ قَوْلَهُ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَيَحِيدُ بِهِ عَنْ مَهْيَعِهِ فَيُرِيدُ أَنْ يَتَّخِذَهُ حُجَّةً عَلَى حُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ بَيْنَ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ. وَشَتَّانَ بَيْنَ أَحْوَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَحْوَالِ جَامِعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

فَمَنْ يُلْحِدُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ يُسْتَتَابُ ثَلَاثًا فَإِنْ لَمْ يَتُبْ قُتِلَ، وَإِنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْبِذُوهُ مِنْ جَامِعَتِهِمْ وَيُعَامِلُوهُ مُعَامَلَةَ الْمُحَارِبِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ جَاءَ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ يَقْتَضِي نَبْذَ الْإِسْلَامِ أَوْ إِنْكَارَ مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ بَعْدَ أَنْ يُوقَفَ عَلَى مَآلِ قَوْلِهِ أَوْ عَمَلِهِ فَيَلْتَزِمُهُ وَلَا يَتَأَوَّلُهُ بِتَأْوِيلٍ مَقْبُولٍ وَيَأْبَى الِانْكِفَافَ.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ أعرض ﴿وَكَفَرَ﴾ قال العلماء: ﴿إلا﴾ هنا بمعنى «لكن» يعني أن الاستثناء في الآية منقطع وليس بمتصل. أي: لكن من تولى وكفر، فإن لله الولاية والقهر، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق.

لأنا لو قلنا إنه متصل لصار معنى الآية: "لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فأنت عليهم مصيطر" وليس الأمر كذلك.

وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة:31-32]

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ عذاب جهنم يوم القيامة. ولم يذكر المفضل عليه يعني لم يقل الأكبر من كذا فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة.

وهناك عذاب أصغر في الدنيا قد يبتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، أو في عقله، أو في أهله، أو في ماله، أو في مجتمعه، وكل هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر.

روى أحمد عَنْ عَلِيِّ بْنِ خَالِدٍ، أَنَّ أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ مَرَّ عَلَى خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَسَأَلَهُ عَنْ أَلْيَنِ كَلِمَةٍ سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (أَلَا كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ) [سنده جيد]

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث.. تَعْلِيلٌ لِجُمْلَةِ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.

وَنُقِلَ الْكَلَامُ مِنْ أُسْلُوبِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ إِلَى أُسْلُوبِ التَّكَلُّمِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَيْنا﴾ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ.

﴿ثُمَّ﴾ لِإِفَادَةِ التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ فَإِنَّ حِسَابَهُمْ هُوَ الْغَرَضُ مِنْ إِيَابِهِمْ وَهُوَ أَوْقَعُ فِي تَهْدِيدِهِمْ عَلَى التَّوَلِّي.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فنجازيهم بالعذاب الأكبر. فإن القهر والغلبة له تعالى وحده.

** بِتَقَدُّمِ حَرْفِ التَّأْكِيدِ، وَإِسْنَادِ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِحَرْفِ «عَلَى» مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ بِأَدَقِّ مَا يَكُونُ، وَعَلَى الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:284]

** مِنَ الْوَاضِحِ مَجِيءُ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾، بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ; تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَخْوِيفًا لِأُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا، ثُمَّ إِنَّ الْحِسَابَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ لَيْسَ خَاصًّا بِهَؤُلَاءِ، بَلْ هُوَ عَامٌّ بِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ. وَلَكِنَّ إِسْنَادَهُ لِلَّهِ تَعَالَى مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمَعَانِي الْمُتَقَدِّمَةِ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالسَّلَامَةَ.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com